

الأحد 21 من ديسمبر سنة 2008م - 23 من ذو الحجة سنة 1429هـ - العدد 806

## مدرسة التاريخ الاجتماعي



Artist: Fromentin Eugene

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بأداب القاهرة: أحمد الشربيني

اهتم جيل الرواد من الأكاديميين المختصين بالكتابة التاريخية في ثلاثينيات القرن العشرين وأربعينياته بتمصير كتابة تاريخ مصر، والإفادة من الاتجاهات الحديثة في كتابة التاريخ، والتي تبلورت في أوروبا قبل نهاية القرن التاسع عشر، والتي لم يكونوا بمنأى عنها بحكم دراستهم بالخارج، وعلي أيدي أساتذة أجنبي. وتجلت المحاولات المبكرة للإفادة في مصر بهذه الاتجاهات، في المحاولة التي قام بها محمد شفيق غربال للقفز على ثوابت المدرسة التقليدية في كتابة التاريخ، عندما وجه بعض طلابه لدراسة موضوعات في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، والذين كان من بينهم أحمد عزت عبدالكريم، الذي تحمل المهمة التي بدأها أستاذه، واستكمل مشروعه في أبنائه وتلاميذه الذين كان في طليعتهم رعوف عباس، الذي لعب دورا مهما في التأسيس لاتجاه أصيل في كتابة تاريخ مصر الاجتماعي.

وقد شكلت ظروف كثيرة هذا الاتجاه عند رعوف عباس، بعضها يعود للظرف التاريخي والمجتمعي الذي تكونت فيه إرادته البحثية، وبعضها الآخر يعود إلي انتمائه الاجتماعي والطبقي، حيث تزامن تخرجه في الجامعة في مطلع ستينات القرن العشرين، مع الانفتاح غير مسبوق علي الفكر الاشتراكي الذي شهده المجتمع المصري والاتجاه نحو الاشتراكية، وصدور قوانين يوليو، عندما قرر نظام يوليو القيام بأعباء التنمية بنفسه، بعد أن أعينته محاولات اقتناع الرأسمالية الاجتماعية المصرية، التي اعتبرها علي رأس أولوياته. كذلك كان لانتماء رعوف عباس الاجتماعي دور في تشكيل اهتماماته البحثية، خاصة أنه اعتبر نفسه ابنا لطبقة في حاجة الي من يدافع عن حقوقها ومصالحها، وزاد من ارتباطه بهذه الطبقة وعدم الانسلاخ عنها، عمله بعد التخرج بالجهاز الوظيفي بإحدى الشركات الأجنبية التي كانت تعمل في احدي المدن المصرية، وامتد اليها التأميم، ومراقبة تحركات العمال للمطالبة بحقوقهم والدفاع عن مصالحهم، ثم التحامه بهذا النضال، بدرجة عرضته للمساءلة، والملاحقة. وبلغ وفاء رعوف عباس لانتمائه الاجتماعي انه عندما قرر كتابة سيرته الذاتية - حتي بعد أن أصبحت أماله وطموحاته لا تلتقي مع هذه الطبقة - راح يفخر بأنه كان ابنا لجد وأب كانا يعملان بمصلحة السكك الحديدية. لهذا كان رعوف عباس متسقا مع ذاته عندما اختار موضوع «الحركة العمالية في مصر 1981 - 2591» لدراسة الماجستير، بعد أن رأي أن نجاح تحرك عمال الشركة التي كان يعمل بها في اسقاط اللجنة النقابية، لم يأت من فراغ بل كان وراءه بالضرورة خبرة نضالية، لا بد من الوقوف عليها.

ودراسة موضوع كهذا للماجستير عندئذ لم يكن بالشيء الهين، لأنه موضوع يتناول تاريخ طبقة، لديها تطلعات لتحسين ظروف عملها ومستويات معيشتها، بعد فترة تحملت فيها مسئوليات مزدوجة - تمثلت في الدفاع عن مصالح الوطن - في مواجهة السلطان المطلق والامبريالية الغربية، ومصالح العمال أنفسهم - وأصبحت تشكل ركيزة البناء الاشتراكي في عصر الثورة. ولعل حساسية دراسة مثل هذا الموضوع في منتصف ستينات القرن العشرين هو ما حدا بالأستاذ الدكتور أحمد عزت عبدالكريم الذي كان بصدد الاشراف علي الرسالة الي البحث عن أسباب تمسك رعوف عباس بدراسة هذا الموضوع، وما إذا كان هناك اتجاه سياسي معين وراء الاصرار عليه من عدمه، بيد أن رعوف أفتق الأستاذ بأن الاختيار دوافعه علمية صرفة، وان تجربة العمل علي مقربة من العمال بإحدى الشركة المؤممة بكفر الزيات وراء هذا الاختيار. وعندئذ برك الأستاذ المشرف الموضوع، الذي كان لفتاعة رعوف عباس به أكبر الأثر في اعداده بهمة واخلاص منقطع النظر، مما جعل الدراسة في النهاية تحظى بقبول فائق من المتخصصين في التاريخ، والمتقنين بشكل عام، كما أنها بشرت بمولد باحث متميز في التاريخ الاجتماعي وهذا ما عبر عنه أحد أعضاء لجنة المناقشة - الدكتور محمد أحمد اتيس - عندما استهل مناقشة الرسالة بالقول «لقد قدر لهذه القاعة أن تشهد مولد مؤرخ جديد من المدرسة الاجتماعية».

واخلاصا لهذا الاتجاه، اتجه رعوف عباس لدراسة الدكتوراه في موضوع «تطور الملكية الزراعية الكبيرة في مصر فيما بين عامي 7381 - 4191» وهي الفترة التي شهدت نشوء واستقرار، ونمو الملكيات الكبيرة، والتي كان نشوؤها ثورة أحدثت علي المدى البعيد أثارا خطيرة في البناء السياسي والاجتماعي والاقتصادي لمصر الحديثة. فبقدر نمو الملكيات الكبيرة اتسع خطرهما، حتي احتاج الأمر الي ثورة أخرى لتصحيح الأوضاع واعادة الاتزان الي البناء كله، ثورة لم ينتبأ رعوف عباس - في دراسته - أن يقوم بها فلاحون أو صغار الملاك، رغم التناقض الذي ترتب علي تزايد وتركز الملكيات الكبيرة، لأنه تناقض لم يفض الي صراع طبقي أو صراع اجتماعي بسبب انتشار الجهل بين الفلاحين، وضعف البرجوازية الصغيرة التي كانت الحلف الطبيعي لجماهير الفلاحين في تلك الفترة، وضعف الحركة التعاونية وحرص السلطات علي وضع العراقيل أمامها، وانصراف الأحزاب السياسية الي قضية التحرر الوطني دون أن تلقي بالا الي المشاكل الاقتصادية والاجتماعية.

وتصدي رعوف عباس لدراسة الحركة العمالية، وكبار الملاك الزراعيين في مصر، في أطروحيته للماجستير والدكتوراه فتح أمامه أفقا لمواصلة استكشاف الجوانب المختلفة لتاريخ مصر الاجتماعي من خلال دراسات أخرى، تناولت في معظمها أبعاد المسألة الاجتماعية المصرية، والبدائل التي طرحت لحلها.

من هنا جاءت دراستها عن الحركة العمالية في ضوء الوثائق البريطانية، وحزب الفلاح الاشتراكي، وحيازة الأراضي الزراعية، ثم البحث في روي التنظيمات السياسية المصرية المختلفة لحل المسألة الاجتماعية، والتي بدأها بجماعة النهضة القومية لأهمية الأفكار التي طرحتها، لحل المسألة الاجتماعية، ولأنها قدمت نموذجا فريدا للنقد الاجتماعي من داخل اطار النظام الليبرالي الذي عرفته مصر منذ دستور 3291 وحتى 2591. واهتمام رعوف عباس بتأسيس اتجاه في كتابة تاريخ مصر الاجتماعي في العصر الحديث، لم يتوقف عند حد اختياره الدقيق لموضوعات تخدم هذا الاتجاه، في اطار خطة علمية محكمة التنظيم، بل امتدت الي مشروعات الماجستير والدكتوراه التي أشرف عليها، والتي اختيرت موضوعاتها بعناية فائقة حتي تخدم المشروع الذي كان يعمل في اطاره، حيث اهتمت الدراسات التي أشرف عليها بالكشف عن دور الموظفين الأجانب والمصريين في الادارة المصرية، والاقتصادي المصري في ظل التبعية، واثر نظام الاحتكار وسقوطه في الاقتصاد المصري، وسياسة الاحتلال الزراعية، والسخرة وأثارها الاقتصادية والاجتماعية، وصغار ملاك الأراضي الزراعيين، وهي موضوعات نحسبها في غاية الأهمية.

كذلك قاد رعوف عباس اتجاها لاستعادة حقيقة ما حدث للمجتمع المصري خلال العصر العثماني - ثلاثة قرون - واعادة رسم الصورة التي كان عليها اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، عندما فتح المجال أمام مجموعة من الباحثين المصريين والمغاربة والأجانب لدراسة موضوعات في تاريخ مصر الاجتماعي في العصر العثماني. وفي السياق ذاته اهتم رعوف عباس بترجمة الأعمال العلمية التي عنت بتاريخ هذه الفترة، والتي تمثل انقلابا علي المقولات التي نعتت العصر العثماني بالتخلف والجمود، منها «تجار القاهرة في العصر العثماني» لنللي حنا، والتي انتهت الي أن هذا العصر شهد مولد رأسمالية تجارية في المنطقة، أعادت بناء شبكتها التجارية العالمية الممتدة من ساحل الملبار بالهند الي المدن الايطالية بأوربا والي السودان الغربي، وساهمت في تنجيز الزراعة وتنشيط صناعة

السكر، وما ارتبط بذلك من تحولات اجتماعية وتغيرات في هيكل السلطة وتشابك المصالح بين رأس المال التجاري وبينها. ولعل هذه الدراسة كانت وراء اهتمام رعوف عباس بالبحث عن أسباب اخفاق الرأسمالية المصرية في تحقيق انجازات في الشرق مماثلة لتلك التي حققتها الرأسمالية التجارية في أوروبا.

وهناك دراسات أخرى عن العصر العثماني اهتم رعوف عباس بترجمتها منها «ثقافة الطبقة الوسطى في مصر العثمانية ق 61 - 81م» لنللي حناو والتي طرحت مقولات من شأنها نسف مجموعة من الأفكار التي سادت بين المشتغلين بالتاريخ العثماني، عندما انتهت الي أن وجود رأسمالية تجارية بالمنطقة في العصر العثماني، والرخاء الناجم عن نشاطها، أدي الي بروز طبقة وسطه حضرية، ارتكز وجودها علي أسس اقتصادية واجتماعية واضحة، ولها ثقافتها المعبرة عن وجدانها ومصالحها، والتي اختلفت عن الثقافة الدينية السائدة. وبهذا تكون الدراسة قد صحت المقولات التي تمسك أصحابها بتقسيم المجتمع في العصر العثماني الي طبقتين، الأولى وتعرف بطبقة الخاصة وتضم أهل السلطة والحل والعقد من لاذ بهم من العلماء الكبار، أما الطبقة الأخرى فهي طبقة العامة وتشمل كل من عداهم من الناس بصرف النظر عن أوضاعهم المادية. وهو تقسيم يتسق مع مفاهيم «الاستبداد الشرقي» و«المجتمع ما قبل الرأسمالي» و«المجتمع الخراجي» والذي لا يعترف بوجود طبقة وسطى. وتمشيا مع هذا الاتجاه اهتم رعوف عباس بترجمة أعمال لباحثين أجانب، جاءت في اطار نظري غير مسبوق منها دراسة بيتر جران عن الجذور التاريخية للرأسمالية الاسلامية، ودراسة شارل عيساوي عن الهلال الخصيب، ودراسة الكسندر شولس عن أزمة مصر الاجتماعية والسياسية 8781 - 2881.

وقد تعدي التأثير الذي تركه رعوف عباس في مدرسة التاريخ الاجتماعي في مصر التأليف والاشراف علي الرسائل العلمية والترجمة الي المساهمة في تكوين جيل كامل من خلال ترتيب المؤتمرات وحلقات النقاش والسيمنارات التي أجاد تنظيمها، والتي استقطبت شباب الباحثين في التاريخ والعلوم الاجتماعية، ويشهد بذلك الأداء العلمي المميز الذي تشهده أروقة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، منذ أن تولي رئاسة مجلس ادارتها، ومن قبل قسم التاريخ بأداب القاهرة عندما كان الرجل رئيسا له لفترتين متتاليتين، ونجح في تأسيس سيمينار للتاريخ، استقطب في وقت قصير كل المهتمين بالدراسات التاريخية بأثناء المحروسة بعد أن ذاعت شهرته في دقة التنظيم واختيار الموضوعات التي كانت تعرض في جلساته النصف شهرية. ولن أكون مبالغا اذا قلت أن هذا السيمينار تأثر به قطاع كبير من الباحثين في التاريخ والحضارة ممن هم علي الساحة الآن. وعندما أدرك الرجل أن هناك اتجاها لتجفيف منابع السيمينار قرر نقله الي مقر الجمعية التاريخية - وخيرا فعل - حيث قدر له أن يستمر ويتخصص في العصر العثماني بعد أن نمت علي هامشه حلقات نقاش وسيمنارات أخرى متخصص في تناول موضوعات مختلفة في التاريخ والحضارة.

هكذا جاءت دراسات رعوف عباس ومشاريعه البحثية واهتماماته بالترجمة لأكثر من ثلاثين عاما، في اطار رؤية لاستكشاف أبعاد تاريخ مصر الاجتماعي، مما جعله أحد أبرز رواد مدرسة التاريخ الاجتماعي في مصر، والذي سنظل دراساته وخطه العلمية منطلقا لدراسة كثير من الموضوعات في تاريخ مصر الاجتماعي لأجيال قادمة.

<http://akhbarelyom.org.eg:81/adab/articleDetail.php?x=adab2008&y=806&z=1976&m=4>